نفوسنا التي يجب أن تتغير.. بقلم: الإمام حسن البنا

الأربعاء 6 فبراير 2019 02:07 م

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: من الآية 11) حين أنزل الله القرآن على نبيه محمد- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- وقرأه نبينا الكريم على الأمة العربية حينذاك عمل في نفوسهم عمل السحر، وبلغ أثره أعماق هذه القلوب، وتغلغل في حنايا الضلوع، وتمكَّن من مكامن الأرواح، وبدَّل الله به هذه الأمة خلقًا آخر، فكان البون بعيدًا، والفارق عظيمًا بين الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها.

ولقد أثَّر القرآن في نفوس المشركين والمؤمنين على السواء، ولكن أثره في نفوس المشركين كان أثرًا وقتيًّا سلبيًّا، وكانوا يفرون منه ويضعون الحوائل فيما بينهم وبينه، ويقول بعضهم لبعض: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: من الآية 26).

أما المؤمنون فكانوا يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، فكان أثر القرآن في نفوسهم دائمًا إيجابيًّا، بدلهم وغيرهم وحولهم من حالٍ إلى حال، ودفعهم إلى كرائم الخصال وجلائل الأعمال ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)﴾ (الزمر).

وها هو القرآن الكريم يُتلى علينا ويقرأ بين ظهرانينا، فهل تغيَّرت به نفوسنا وانطبعت عليه أخلاقنا، وفعل في قلوبنا كما كان يفعل في قلوبِ أسلافنا؟.

لا- أيها الإخوان، لقد صرنا نقرأ القرآن قراءةً آليةً صرفةً، كلمات تتردد ونغمات تتعدد، ثم لا شيء إلا هذا، أما فيض القرآن وروحانيته وهذا السيال الدافق من التأثير القوي الفعَّال، فمن بيننا وبينه حجاب، ولهذا لم نكن صورة من النسخة الأولى التي تأثَّرت بالقرآن وتبدَّلت نفوسها به، وها نحن الآن نريد أن نقتدي بهذا السلف، ونريد أن تنهض من جديد في نفوس المسلمين وشعوب المسلمين أمة القرآن ودولة القرآن.

فهل لنا أن نتصل بالقرآن صلةً حقيقيةً تطهر من أرواحنا وتغير من نفوسنا؟

إننا نُؤثر الدنيا ونُحبها من كلِّ قلوبنا، فهل لنا أن نستمع إلى قول الله العلي الكبير: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)﴾ (التوبة)، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)﴾ (الأعلى)، وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: من الآية 96)، فنؤثر ما عند الله على ما عند أنفسنا ونحرص على مرضاته وجزيل مثوبته ولا نعبأ بما يُصيبنا في سبيل الحق الذي ندبنا إليه من أذى في النفوس أو الأموال، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولن يصيبنا إلا الخير بإذن الله ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)﴾ (آل عمران).

وإننا ننظر إلى الأسباب نظرة هي كل شيء، ونهمل في حسابنا إرادة العلي الكبير، ومناصرته لأوليائه من حيث لا يحتسبون، وتأييده إياهم بما يعلم الناس وما لا يعلمون، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)﴾ (الطلاق)، ويقول تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ (القصص)، إلى غير ذلك من الآيات التي

تكل الامر كله لله من قبل ومن بعد.

فهـل لنا أن تتغير نفوسـنا بهـذا الوحي الرباني، والوعـد القرآني، والتنزيل السـماوي، فنكون بما في يـد الله أوثق منا بما في يد أنفسنا؟!.

إننا نغضب لأوهى الأسباب، ونتقاطع ونتدابر بسبب وبغير سبب، وتفرق بيننا الآراء والأهواء والشهوات والمنازع والدنيا، والعرض الزائل والوهم والأمنيـة الباطلة، والغاية الفاشـلة الزائلة، والله يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْـدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: من الآية 103)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية 10)، ويقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: من الآية 71).

فهل لنا أن نتأثر بهذا الخطاب الكريم فننسـى الضغائن والأحقاد، ونطهر النفوس والصدور، ونجتمع على كلمة الله، ونكون إخوانًا لـذاته متحـابين بروحه متعـاونين على مرضـاته، إنَّ الله سـبحانه وتعـالى يقـول: ﴿قَـدْ أَفْلَـحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِيـنَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ (المؤمنون).

فأين نحن من هذه الأوصاف الكريمة والسمات الفاضلة التي وسم الله بها عباده المؤمنين.

الخضوع في الصـلاة والمحافظـة عليها، والإعراض عن اللغو في القول، والعمل على تجنب ما لا يفيد ولا ينفع، وكل صـغير وكبير مستطر، وأداء الزكاة، زكاة الفطر وزكاة المال إبراءً للذمة وتطهيرًا للثروة ومنعًا للفتنة وبِرًّا للفقراء والمساكين.

وحفظ الفروج وصـيانتها عن غير ما أحل الله لها، وحفظ ما يتصل بها من العين والأذن والفم والأنف واليـد والرجل، وقديمًا قال الشاعر العربي:

عمرك ما أهويت كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي

حفظ الفروج سـموًا بالعاطفـة، وعلوًا بالروح، وتنزيهًا للنفس وصـيانةً للعرض، وصـرعًا للشـيطان، وإرضاءً للرحمن، وأداء الأمانة والوفاء بالعهد أداءً للحق، واعتدادًا بالنفس، وتوفيرًا للثقة، وإقامةً لميزان التعارف والتعاون بين الناس.

أين نحن الآن من هذه الأوصاف القرآنية التي أضافها الإسـلام على أبنائه من المؤمنين الصادقين، والتي تخلق بها سـلفنا، فكانوا خير أمة أخرجت للناس؟!.

هـذه نماذج من تعاليم القرآن طبع بها نفوس أسـلافنا فانعكست على مرآةِ أخلاقهم وأضاءت أشـعة نورانيـة للناس، وهدتهم بهم سواء السبيل.

فهل تتغير نفوسنا فتتغير أحوالنا؟

اللهم حقق الرجاء وأجب النداء.. آمين.

---

* سبق نشره في "إخوان أون لاين" بتاريخ 19 فبراير 2017م.

https://www.ikhwanonline.com/article/235653